رأسها حتى تصير في آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرة: سرج السماء.

وأما معرفة أوقات الصلوات، فلابد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فلينصب المسافر عودًا مستقيمًا، وليعلم علامات على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله، ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه.

وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقي الأوقات معروفة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- س: اذكر طرفًا من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث عليه؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مثل القائم على**

حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصبنا خرقًا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا» [أخرجه البخاري وأحمد في مسنده، وهذا لفظ أحمد].

س: ما هي مراتب إنكار المنكر؟

ج: جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» [أخرجه مسلم (٤٩)].

وفي حديث آخر: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» [أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد في مسنده (١٠٧٥٩) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٠)].

وقام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب**» [أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد في مسنده (١)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٤٢)].

س: ما هي أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: اعلم: أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة:

أحدها: أن يكون المنكر مكلفًا مسلمًا قادرًا، وهذا شرط لوجوب الإنكار. فإن الصبي المميز له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه. وأما عدالة

المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وليس لهم في ذلك حجة.

واشترط قوم كون المنكر مأذونًا فيه من جهة الإمام أو الوالي، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عنه عصى، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم.

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضي طالبين حقوقهم: نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهي عن المنكر، ولم يجيئ زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد. فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقًا، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان.

قلنا: أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطان والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة منكرًا موجودًا في الحال ظاهرًا، فمعنى كونه منكرًا أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيًا أو مجنونًا يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنونًا يزني بمجنونة أوبهيمة، فعليه أن يمنعه.

وقولنا: موجودًا في الحال، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضًا احتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب الليلة، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: ظاهرًا، احتراز ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير

والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر، فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلومًا كونه منكرًا بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكر عليه، ويكفي في صفته أن يكون إنسانًا، ولا يشترط كونه مكلفًا كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب، وله درجات وآداب.

س: ما هي مراتب الحسبة؟

ج: **الأولى**: التعريف

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

والرابعة: المنع بالقهر، ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هوعليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

س: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟

ج: قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللوالد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، وبريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادرًا على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

س: ماذا لوعلم المنكر أن إنكاره لا ينفع؟

ج: إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أوفعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحبًا لقوله في الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصفن حرم ذلك وكذلك لو رأى فاسقًا وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر في الدين أثرًا يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر،

وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضيع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أوالقتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر في السكوت، لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب.

س: ما هي درجات الاحتساب وما آدابه؟

ج: **الدرجة الأولى**: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لوأخبره عدلان ابتداء أن فلانًا يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكرًا، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف،فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالمًا، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم.

فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء.

ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وهاهنا آفة عظيمة أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذلك غيره بالجهل.

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذلك محك ومعيار، فينبغي أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أوباحتساب غيره عليه، أحب إليه من امتناعه عنه باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفي بغيره، فليحتسب، فإن باعثه هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متبع هوى نفسه، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولًا على نفسه.

وقيل لداود الطائي: أرأيت رجلًا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه السيف، قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الانبياء: ٦٧].

الدرجة **الخامسة**: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أن يجره ولا يدفعه.

والثاني: أن يكسر الملاهي كسرًا يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوق في إراقة الخمور كسر الأواني إن وجد إليه سبيلًا، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجر أونحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولوستر الخمر بيديه، فإنه يقصد يديه بالضرب ليتوصل إراقة الخمر، ولوكانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث أن إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله

كسرها، لأن عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان في صبها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولولم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهلا يجوز الكسر زجرًا، وكذلك الجر بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجرًا؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاة، ولا يجوز لآحاد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهين دارك، ولأسبين زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهوحرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضًا بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

س: ما هي صفات المحتسب؟

ج: صفات المحتسب. **الأولى**: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع. **والثانية**: الورع، فإنه قد يعلم شيئًا ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالثة: حسن الخلق، وهوأصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهي عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهي عنه، فقيه يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكي عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من قصاب في جواره شيئًا من الغدد، فرأى على القصاب منكرًا، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب،فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئًا لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك، وهذا صحيح، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر الإنكار عليهم.

أحدهما: من لطف ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وروي أن أبا الدرداء ﷺ مر على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه، فقال: «**أرأيتم لووجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي**».

ومر فتى يجر ثوبه، فهم أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة، قال ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسن إلى عرس: «**فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على**

رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهي في سكون».

س: اذكر بعض المنكرات التي ألفها الناس ليحذر منها؟

ج: من ذلك: منكرات المساجد: مما يشاهد كثيرًا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمي أوظلام. ومن ذلك اللحن في القراءة.

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذلك: تراسيل المؤذنين وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أوبيده سيف مذهب.

ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب، والأشياء المنهي عنها، كالخوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك.

ومن ذلك أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة، والتعويذات، وقيام السؤال، وإنشادهم الأشعار، ونحوهذا. فهذه منها ما هوحرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات **الأسواق**: ومن ذلك: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة بعشرة، ورابح فيها درهمًا، وكان كاذبًا، فهوفاسق. ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكًا له في الخيانة، وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذلك التفاوت في الميزان والذراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أوبرفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: الشروط الفاسدة، واستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات **الشوارع**: من ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج

الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدي إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارة. فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع من ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسة على جواد الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أورش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزان معين. فأما ان كان من المطر، فذلك على الولاة، وليس للآحاد في ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات: من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمام أوداخله، ويكفي في زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر.

ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحيه الوسخ أومس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياة القليلة، فإن فعل ذلك مالكي، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الطهارة علي.

منكرات الضيافة: من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور في مجمرة فضة أوذهب، والشرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، وإطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستئجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، ويجب الإنكار، فإن كان مزحًا لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما لم يقل من ذلك، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة: من تيقن أن في السوق منكرًا يجري على الدوام، أو في وقت معين وهوقادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه.

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يُعْلِمُ ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

س: وماذا عن أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟

ج: ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تخشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه المنع من ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا تتعرضن بالسلطان، فإن سيفه مسلول، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب**».

س: اذكر بعض مواعظ السلف للخلفاء والأمراء؟

ج: دخل شيخ من الأزد على معاوية، فقال: «**اتق الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعدًا، ومن الآخرة إلا قربًا، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باق، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر**».

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثًا، فقال: «**ما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟** فقيل له: ها هنا رجل يقال: أبوحازم، فبعث إليه، فجاء. فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبوحازم: وأي جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبوحازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: يا أبا حازم، وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار ١٣-١٤].

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمةوعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: سن حط نفسه في هوى رجل وهوظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا. قال سليمان: نصحية تلقيها. قال أبوحازم: إن ناسًا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبوحازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلًا، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات. قال: فأشر علي. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك، أويفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته. فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبوحازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقًا؟ قال أبوحازم: إن بني اسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولوكان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرض؟ قال: هو ما تسمع».

وحكي أن أعرابيًا دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: «**يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب قبلته. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوك دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم،**

خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا والأمة خسفًا، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سلك لسانك، وهوأقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصة دون عامة فلا، ثم قام فخرج. فقال سليمان: لله دره ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل».

وقيل: وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبي حازم: «عظني. فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن».

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبوهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا منها جنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فتخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فاتق الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

ودخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب به وقال: «ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم

قال: يا أبا محمد هل من حجة غيرها؟ فقال: نعم: فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذَكَّرَه بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد. قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاء، فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها».

وعن محمد بن علي قال: «إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر المنصور شيئًا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب. قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في أعراض الناس. فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول في؟ قال: أو يعفيني أمير المؤمنين؟ فقال والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبوبكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم، فخلاه أبوجعفر، وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من ابنك المهدي».

وعن الأوزاعي رحمه الله قال: بعث إلى المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت

إليه وسلمت عليه استجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما وال مات غاشًا لرعيته حرم الله عليه الجنة**» [أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (١٤٢)].

وقد قال عمر بن الخطاب: «**لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك**».

ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: اطلبوه لي، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل ألكن، لا أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه. فأتى برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوفك قبل أن تبلغ المأمن، أنصح لك من الذي يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل في الرعية، واقسم بالسوية، وانفذ في السرية، واتق الله في نفسك، هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن أمنت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكي هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك».

وعن علقمة بن أبي مرثد، قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي، فأمر لهما ببيت، فكانا فيها نحوًا من شهر، ثم دخل عليهما وجلس

معظمًا لهما، فقال: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجًا؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير. فتكلم الشعبي، فانحط في أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أيها الأمير، فقد قال الشعبي ما قد سمعت. فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد ابن عبد الملك من الله تعالى.

يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة، اني أخوفك مقامًا خَوَّفَكَهُ الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [ابراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وَكَّلَكَ الله إليه. فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه».

ودخل محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في حبشة،

وعنده الثلج، فقال له: «يا أبا عبد الله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلًا عن القدر. قال: ادع الله لي. قال: وما نصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي».

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثارًا لإقامة حق الله تعالى على تقاهم، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض على مواعظ هؤلاء. والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، اقتنع بلطف الموعظة وحسب.

ولذلك سببان:

أحدهما: يتعلق بالواعظ، وهوسوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثاني: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

حكم السماع

س: ما المقصود بالسماع وما حكمه؟

ج: السماع الذي نعني به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغر به خلقًا لا يحصون من العلماء والزهاد، فضلًا عن العوام، حتى ادعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها، وجده يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر في القرن الأول، هل فعل رسول الله ﷺ شيئًا

من ذلك أوأصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيم، وفقهاء الأمة، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله، فكل القوم ذموا الغناء، حتى قال مالك: «**إذا شترى جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله الفساق**».

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولدًا وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلى بيعها، فقال: «**تباع على أنها ساذجة لا مغنية، فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفًا إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين دينارًا، فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء**».

ومن المتأخرين أبوالطيب الطبري من كبار أصحاب الشافعي، وصنف كتابًا، وبالغ في النهي عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف. وقد سمع أحمد بن حنبل قول قَوَّالٍ، فقال: لا بأس بهذا، فينبغي أن يتأمل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها، من غير ضرب بقضيب، أوآلة تطرب، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص.

وعلى هذا يحمل حديث عائشة في الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعاث فإن ذلك لا يطرب [أخرجه البخاري (٩٥٢٣)، ومسلم (٨٩٢)].

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقًا بالآخرة، وهيهات.

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونه قربة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجدًا، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للانسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد،

وندم على التفريط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجمز والتصفيق، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتى نحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدي.

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثل من قال: أنا أنظر إلى الأمرد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦]. ومن قالك إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من انجذاب الطبع إلى الهوى، كان مدعيًا ما يخالف الجبلة، فلا يتلفت إلى دعواه.

من أخلاق النبوة

س: اذكر طرفًا من آدب النبي ﷺ وأخلاقه؟

ج: سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه» [أخرجه مسلم (٧٤٦)] ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

- كان رسول الله ﷺ أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدقل ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعًا.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع. وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعامًا

قط. وكان لا يأكل متكئًا، ويأكل مما يليه. وكان احب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدباء، ومن الصبغ الخل، ومن التمر العجوة. وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة، ومرة جبة صوف. ويركب تارة بعيرًا، وتارة بغلة، وتارة حمارًا، ويمشي مرة راجلًا حافيًا. وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة. ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف. ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه. يمزح ولا يقول إلا حقًا، يضحك في غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أوفيما لا بد منه من صلاح نفسه. وما لعن امرأة ولا خادمًا قط. وما رفب أدًا بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما انتقم لنفسه إلا أن تنهك حرمات الله. وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مأثمًا أوقطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه. وقال أنس ﷺ: «**خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لا فعلت كذا؟ ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح**» [أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٠٩)]. وكان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطًا بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأله عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يتثبت فيه ويكرره ليفهم. وكان يعفومع القدرة، ولا يواجه أحدًا بما يكره. وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم. وكان أشجع الناس. قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرت الحدق، واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ، ولم يكن بالطويل البائن ولا

بالقصير، كان ربعةً من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم. وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره إلى شحمة أذنه. وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقنى العرنين، سهل الخدين، كث اللحية، كأن عنقه جيد دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير ﷺ.

س: اذكر طرفًا من معجزات النبي ﷺ؟

ج: أما معجزاته ﷺ: فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن اشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب في أن ذلك لم يكن محتسبًا بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تاييد سماوي وقوة إلهية، وإن ذلك لا يصح لملبس ولا كذاب، بل كانت مائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقة.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبي انقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبدًا.

ومن معجزاته انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي رضي الله عنه وهوأرمد فصح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين.

أحوال القلوب

س: وضح أهمية صلاح القلب وأثره على الجوارح؟

ج: إن أشرف ما في الانسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

مداخل إبليس

س: ما هي مداخل إبليس إلى القلب؟

ج: القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وربما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيها بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

والقلب كمثل الحصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب

التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصًا على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان. وكذلك إذا كان حسودًا، فيجد الشيطان حنئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكرًا أو فاحشًا.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديدًا، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوي الشهوة ويشغل عن الطاعة. ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر. ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبيت، ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة. ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها. ومن أبوابه أيضًا: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين. ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيرًا منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي

الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلًا. إذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى. ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهوجائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذا القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر. فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء. وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

واعلم: أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفًا من الله تعالى كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزمًا، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**» [أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)]. وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة؟ ولو أن إنسانًا رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

ثبات القلوب على الخير

س: وضح أحوال القلوب من حيث التقلب والثبات؟

ج: قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على

دينك» [أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد في مسنده (٢٦٠٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٨٠١)]. «**اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» [أخرجه مسلم (٢٦٥٤)]. وفي حديث آخر: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح**» [[صحيح]: أخرجه أحمد (٢٧٨٥٩)، والروياني في «مسنده» (٥٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٢٢٧)].

واعلم: أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عُمِرَ بالتقوى، وزكي بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، فتنفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.

القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مندس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

والقلب الثالث: قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير.

مثاله، أن يحمل الشيطان حملة على العقل، ويقوي داعي الهوى ويقول: أما ترى فلانًا وفلانًا كيف يطلقون أنفسهم في هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل الملك حمله على الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس، أرأيت لووقفوا في الصيف في الشمس ولك ببيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الانعام: ١٢٥]. اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.